

فلسطين في النثر الجزائري الحديث من 1909 إلى 1950

د/ كمال عجالي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة باتنة

Résumé:

Dans cet article, l'auteur aborde la cause palestinienne dans la littérature en prose algérienne depuis le début du XX siècle jusqu'au déclenchement de la guerre de libération nationale. L'article met l'accent sur la vision des écrivains algériens à la cause palestinienne. Une question qui concerne tous arabes et les musulmans du monde. Ces écrivains insistent sur le devoir des algériens et des arabes de défendre cette cause à l'instar d'autres causes justes à travers le monde. D'autant plus que la Palestine est une partie intégrante du monde arabo-islamique.

Beaucoup d'écrivains et de poètes algériens ont abordé cette question en particulier: BEN BADIS, ABOU ELYAQDAN, EL OQBI et EL IBRAHIMI

Comment voient-ils cette question? Comment est-elle abordée dans leurs écrits? Tel le thème de cet article qui nous fait découvrir la prédominance de cette cause dans la prose algérienne moderne.

ملخص البحث:

في هذا البحث، يتطرق الباحث إلى فلسطين ومأساتها منذ بداية القرن العشرين حتى نهاية النصف منه، في النثر الجزائري الحديث، وكيف تلاحم معها الأدباء وكشفوا المخاطر الصهيونية على الأمة العربية والإسلامية في وقت مبكر من هذا العصر، وكيف برهنوا على عروبتها وإسلامه، وأحقية الأمة العربية والإسلامية بفلسطين.

وهو بحث يهدف إلى كشف مدى ترابط وارتباط الشعب الجزائري مع قضايا القومية ومدى انتمائه إلى أمته، ووقوفه بحزم وصدق وشجاعة مع الشعب الفلسطيني في محنته مع الصهيونية، والإمبريالية العالمية، رغم محنة الاستعمار الفرنسي الذي كان يعمل على بتر الشعب الجزائري من محيطه العربي والإسلامي.

لم تحظ قضية عربية، قومية أو إسلامية في النثر الجزائري الحديث بالقدر الذي حظيت به القضية الفلسطينية باعتبارها قضية جوهرية في عقيدة الإنسان الجزائري. تمثل أحد المقدسات في تفكيره، يرقى الاهتمام بها إلى درجة الاهتمام بالعقائد والعبادات فلم نكد نجد أحدا لا تمثل عنده إحدى نقط التوتر في حياته إلى جانب القضايا الوطنية الصميمة في حياته.

والدارس للأدب الجزائري الحديث شعره ونثره، يجد حضورا مكثفا لفلسطين، بل يرجع الاهتمام بها إلى عصور متقدمة في التفكير واهتمام الجزائريين على حد تعبير أحد الباحثين المعاصرين¹. وبشيء من التدقيق يجد الباحث أن بعض الجزائريين المحدثين من الكتاب نهبوا إلى المخاطر التي يمكن أن تلحق الأراضي الفلسطينية من بعض المشاريع اليهودية التي كانت تتردد هنا وهناك. ذلك لأن الجزائريين خبروا اليهود وعرفوا تصرفاتهم وسلوكياتهم ومؤامراتهم الدنيئة منذ قرون طويلة فعرفوا مكرهم وأحلامهم بعيدة المدى².

ومن أقدم الكتاب الجزائريين اهتماما بهذا الموضوع عمر راسم الذي شن حملة عنيفة على اليهود كاشفا سلوكياتهم وجشعهم ومكائدهم تجاه الجزائريين فكتب منذ بداية القرن العشرين ينبه إلى المخاطر التي يمكن أن تجر على فلسطين وغيرها ما لا تحمد عقباه³. كما كشف أعمالهم التخريبية في الوطن الجزائري وهذا يدينهم في كل عصر ومصر فقال: "كان من عادة اليهود أن يسلبوا وينهبوا ويأكلوا أموال الناس بالذل والمسكنة والربا والخديعة حسب ما أحل لهم تلمودهم رزق من خالفهم في الدين واليوم لم يكفهم ذلك لما وجدوه من دولتهم من قوة العزة التي لحقتهم من المبتاعين والمغفلين وامتزاج دمهم بدم الأردال ممن سامحتهم نفوسهم الدنيئة أن يزوجوا بناتهم لثماتيل العيوب المادية والأدبية خوفا أن يرموهم - هكذا - المتملقون والمذبذبون بالتعصب والتأخر، فصاروا بذلك يهود اليوم لصوص الشوارع والأزقة كما أنهم لصوص الحيلة والغدر والذل والضحك"⁴.

ثم يزيد فيذكر بماضيهم وعاداتهم القديمة المتأصلة في النهب والغدر والخيانة فيقول: "لم يكفهم أنهم أخذوا الممالك من أصحابها وباعوا منها ما شاء ولمن شاءوا بل منهم الآن من يقطع الطريق ويقتل الحر والرقيق"⁵.

لقد سلط عمر راسم جام غضبه وانبرى لهم بقلمه يفضحهم ويكشف سوءاتهم وأعمالهم الدنيئة في الدول العربية والغربية محذرا منهم ومن سوء أفعالهم فقال: "يتجنس اليهود بالجنسية الفرنسية لا حبا في فرنسا ولا شكرا لما عملته معهم من الإحسان

والعناية، وإنما اتكأ على قوتها وتمسكا بسطوتها لينالوا بذلك مبتغاهم ويبلغوا منازلهم حسب ما هو جار في كثير من الأقطار مما لا يخفى على المطالعين"⁶ وحيد عمر راسم ضرب اليهود في الصميم وذلك بمقاطعة تجارتهم كما فعل الأشقاء في تونس لأن التجارة عصبهم الحيوي وموردهم الأول لا الأخير الذي يعتمدون عليه في إذلال العرب والمسلمين، وتمويل مشاريعهم الجهنمية.

أبدى عمر راسم تألماً من تقاعس المسلمين والعرب وعدم أخذهم مسألة محاولة اليهود استعمار فلسطين وإنشاء دولة يهودية في أراضيها مقارنة بالجديّة والحزم الذي يعمل به اليهود. واعتبر ذلك التقاعس من العرب جرماً لا يغتفر، ومن السلطة العليا للدولة التركية عمل غير مقبول فقال: "أهمية استعمار فلسطين التي غفلوا عنها لا يجهلها إلا غبي بليد ولم يقاومها إلا نذل جبان عنيد لأن غايتها تأليف سلطة يهودية في فلسطين تسعى إليها اليهود من وراء حجاب من السياسة الاقتصادية التي يحاولون بواسطتها الوصول إلى ضالتهم المنشودة (صهيون) وقد ألفوا لذلك جمعيات وعقدوا مؤتمرات في عواصم أوروبا وأفروا كل ما في وسعهم إلى ما هم إليه متوجهون ولا شك إذا دام الحال على ما هو عليه أنهم سيفوزون وينالون ما يشتهون وعند ذلك ترى الدولة العليا في شعب يشيب صببانها ما لم تراه مع اليونان والبلغار وغيرهما."⁷

ثم غدا الكاتب يوضح أهداف الصهيونية البعيدة ومخططاتهم والطرق الملتوية التي اتبعوها لإنجاز مشاريعهم وتحقيق أحلامهم الصهيونية على أرض الواقع وتحركاتهم على جميع الأصعدة في الدول الغربية وحكوماتهم ولدى السلطة الحاكمة في دول الخلافة ملوحين بالمال والمساعدات. وحذر من الهجرات السرية والعنيفة للطوائف والجاليات اليهودية إلى أرض فلسطين. والسلطة العثمانية سادرة في استبدادها ونومها العميق في جميع دواليبها وأجهزتها. كما انتقد عمر راسم الدولة العثمانية، انتقد الشعوب العربية والصحف والكتاب والشعراء وغفلتهم عن الخطر الداهم من اليهود.

إن هذا الموقف من عمر راسم تجاه اليهود وقضية استعمار فلسطين وإحساسه المبكر بالأخطار المحدقة بالأمة الإسلامية خلافة وشعوبا جعلت الدكتور محمد ناصر يقول عنه: " غير أن الذي بات شغله الشاغل، والمحور الذي دار حوله أغلب كتاباته وما يتهدد الوطن العربي والإسلامي من خطر الصهيونية فإن اهتمامه بالتحذير من هذا الخطر، اهتمام لافت للنظر حقاً. فإننا لا نعرف كاتباً جزائرياً واحداً، في ذلك الوقت المبكر انشغل بهذا الموضوع ولعله ليس ثمة وصف ينطبق عليه أدق من ذلك الذي اختاره لنفسه حين نعتها بأنه "عدو اليهود على الإطلاق"⁸.

إن المتتبع لأثار محمد راسم يجد أن الرجل قد أعطى أهمية كبيرة لقضية اليهود وحركتهم الصهيونية في العالم العربي والغربي وفضح دسائسهم وسلط الضوء على كثير من خصالهم القبيحة وصفاتهم المرذولة وكشف عن مخططاتهم وأهدافهم القريبة والبعيدة. ففي مقال له لم ينشر، كتبه صاحبه في السجن سلط فيه الضوء على سيطرة اليهود وتغلغلهم في الأوساط المالية العالمية والمراكز الدولية وكشف اصطناعهم الضعيف ولمسكنة حتى يتمكنوا من أهدافهم المرسومة ومدى تضامنهم واتحادهم وتوحدتهم نحو هدف منشود. فقال: "إن اليهود سفراء وقناصل في كل دولة يعملون فيها ما عمل ابن نغريلا بالأندلس أو أكثر أي يعملون إلى ما يقوي شوكتهم، ويعظم سلطتهم وينقذ مظلوم هم، ويخلص ضعيف هم ويغني فقير هم ويؤيد كلمتهم، ويصحح رابطتهم، ولهذا فمع كونهم يظهرون التجنس والوطنية الحادة في الممالك المختلفة التي يسكنونها فإنهم يهود قبل كل شيء فيهودي أمريكا يحس به يهودي روسيا ويمرض لمرضه، ويتألم لألمه ويمده عند حاجته، فكأنهم سلك تلغرافي مشبك في العالم يهزه حيث شاء وكيف شاء، ولتسلطهم على الأحكام والحكام فلا حركة تقع في العالم في صحو وشتاء وحرب وسلم إلا وهم لها عاملون"⁹.

ويحذر راسم من أولئك المستصغرين لشأن اليهود، والمستهينين بأعمالهم، المستقلين لعددهم في ربوع العالم وتوزعهم على أقطاره وأمصاره فيقول: "إن ممن دعتهم غفلتهم إلى اعتناق مذاهب الأوهام كمن يسمى بالاشتراكي، والفوضوي والعدمي، وغيرهم ممن ينتمون إلى انتصار الضعيف ضد القوي باسم الإنسانية (إما بلا مسمى) يقولون إن اليهود أمة ضعيفة حقيرة مسكينة لا ينبغي الالتفات لأنها لا تعمل شيء (كذا) لأنها طائفة قليلة العدد مشتتة الأطراف منفصلة الأعضاء. نعم لا تعمل شيئاً واحداً ولكنها تعمل أشياء"¹⁰.

ومن جملة الأشياء التي يمكن أن يفعلوها بدهاء وتكتم وخداع تظاهرهم بالدعة والطيبة والمسالمة في الظاهر ولكنهم يبطنون غير ما يظهرون لذلك يلفت الانتباه إليهم ويحذر من شرهم فيقول: "وبعد البحث أثبتنا أنهم هم المتسببون فيها، يوقدون نيران الحروب ويلقون شرار الفتن كما نفثوا سم الفساد بين الأمم لفساد أخلاقهم ولتجريدها من الفضائل التي يحتاج إليها العمران والسلم العام، لأن اليهود يريدون أن تبقى الأمم في شقاق واختلاف ليتمكن لهم جمع المال ونيل الأغراض في الغفلة التي تقع عند إلتفات العدو لعدوه حتى تنسيه مصلحة نفسه وجاره ومعاهده وقت الدفاع عن شرفه إنهم يغتتمون هذه الفرص لينالوا سعادتهم وراحة أفكارهم الخبيثة.."¹¹.

إنها الإنتهازية، وإنه اللؤم الذي عرف به اليهود على مدى التاريخ ولا غرابة، فتلك طباعهم الخسيسة وأخلاقهم الوضيعة ألا يصطادوا إلا في المياه العكرة. وبعد سرد مطول وتحليل معمق لشخصية اليهود وتاريخهم يتعرض عمر راسم في مقاله إلى مدى تحكمهم وتسلطهم في الحكومات العربية مثل أمريكا وروسيا وتركيا ثم بين مخادعتهم للشعوب وكيف يجمعون الأموال بالحيل والغدر والربا، وكيف يوظفونها في خدمة أغراضهم وأهدافهم الصهيونية التي شمروا على سواعدهم لتجسيدها وتحقيقها على أرض فلسطين بكل الوسائل وشتى الطرق وسخروا لها صناعاتهم وأغروهم بالمال واشتروهم بالذهب.

إن الذي يقرأ مقال محمد راسم يندهش لإطلاع هذا الرجل وعمق تحليله وصائب فكره في كثير من القضايا الصهيونية وخفايا الماسونية مع صدق في العاطفة وإخلاص للأمة العربية وللدین الإسلامي وحب لفلسطين وأهلها وخوف كبير مما يحاك لها ويدار منذ وقت طويل، كما يعكس تنبهه ويقظة الكتاب الجزائريين المبكر للمخاطر الصهيونية منذ الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918) وماقبلها¹². هذا أولا، وثانيا إن مثل هذه الكتابات المبكرة حول القضية الفلسطينية تعكس الحس القومي المبكر لدى الجزائريين وتؤكد حقيقة لا جدال فيها وهي "أن هذا الشعب عرف سبقا في الوعي القومي وسموا في استشراف قضاياها، الأمر الذي لا يتماشى مع ما كانت تتعت به الجزائر من عقم في هذا الوعي"¹³.

أدرك الجزائريون منذ بداية القضية الفلسطينية في الظهور على الساحة العربية، أن القضية ورائها مشروع صهيوني كبير مدعوم من قبل الغرب الحاقد على العروبة والإسلام وما المبررات التي كانت تشاع وتذاع للإقناع إلا برفع يخفي ورائه مخاطر كثيرة على فلسطين وعلى غيرها من البلدان العربية فقال: إبراهيم أبو اليقظان في هذه المسألة: "إن كل من ينظر ويدقق البحث في قوادم المسألة وخوافيها، يجد أن المسألة ليست المبكى والبراق، وإنما حقيقة المسألة هي السرطان الصهيوني، الناشب مخالفه في خناق العالم الظاهرة عوارضه الراهنة في خردوس الإسلام وجنة الأرضين ومقر أنبياء الله فلسطين"¹⁴.

إن المستقرئ للنص أعلاه، يدرك أن الكآبة كان عالما بالأغاليط التي كان يشيعها اليهود في المجالس والنادي، بينما هم يخفون أمرا آخر ظاهره حائط المبكى بزعمهم، الذي به يستعطفون العالم ويستردون الشفقة والمساندة، وكلها في حقيقة الأمر تمويزات جعلت الدين والأماكن المقدسة ذريعة للاستيلاء على أرض فلسطين العربية. ولكن الشعب

العربي في فلسطين تصدى لمثل هذه المخططات، بل قاومها بكل ما يملك من قوة وعتاد وكانت ردة الفعل عنيفة وقوية مشرفة، وبدأت المقاومة في أرض فلسطين لما تبين أن اليهود ومناصريهم ماضون في تطبيق وعد بلفور الصادر في 2 نوفمبر 1917 م فـ "السابع عشر من آب أغسطس 1929 تفجرت المقاومة الفلسطينية المسلحة في القدس، وامتدت إلى بقية أنحاء فلسطين وبذلك فإنها كانت أوسع نطاقا وأشد خطرا من الانتفاضتين اللتين تفجرتا في عامي 1920، 1921"¹⁵.

ولكن الصهيونية العالمية كانت بالمرصاد فرمت بشباكها لتجهض الثورة "وكالعادة عمدت بريطانيا إلى تشكيل لجنة تحقيق جديدة برئاسة" السير والترشو" وعضوية ثلاثة شخصيات يمثلون الأحزاب البريطانية الثلاثة، المحافظين والعمال والأحرار".¹⁶ وكما هو الشأن فقد بقيت أعمال اللجنة تراوح مكانها، غير أن الوضع كان يزداد خطورة وتعقدا واحتقانا. فعرف الفلسطينيون أن الحل الوحيد هو الثورة العارمة والرد على اليهود وبريطانيا لا يكون بانتظار تحقيق ما كان يهدفان إليه فعمد الفلسطينيون إلى الثورة العارمة في كل أنحاء فلسطين "ولقد بدأت بودار الكفاح المسلح الفلسطينين تتفجر عام 1933م بالمظاهرات الصاخبة الدامية التي شهدتها القدس يافا في شهر تشرين أكتوبر من ذلك العام.

ثم أخذت هذه المظاهرات تتصاعد إلى أن بلغت مرحلة الثورة التي فجرها الشيخ عز الدين القسام في الثاني من نوفمبر 1935".¹⁷

كما لجأ الفلسطينيون إلى وسيلة أخرى للضغط على الحكومة البريطانية التي كانت تتحكم في الأوضاع وتتحكم بزمام المبادرة "وفي السابع عشر من أبريل/ نيسان 1936 أعلن الشعب العربي الفلسطيني الإضراب العام الذي يعتبر من أطول الاضرابات التي عرفها التاريخ إذ استمر 176 يوما وكان شاملا لكل أوجه الحياة والمرافق العامة"¹⁸.

التف الأدباء الجزائريون حول القضية الفلسطينية منذ وقت مبكر من هذا القرن فسجلوا كل أحداثها وتتبعوا تطوراتها منذ البداية وظلوا ملتزمين بذلك. يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "ولعل أهم قضية عربية احتفى بها الأدب الجزائري، هي قضية فلسطين، فقد نوه بها الكتاب في الصحافة الوطنية وتغنى بها الشعراء في مناسبات متعددة مما جعلها شغل الرأي العام.. كما خصصت الصحافة الافتتاحيات الضافية والأبواب الدائمة لدراسة طبيعة فلسطين وأهميتها التاريخية والقومية للعرب".¹⁹

ولم يقتصر ذلك الاحتفاء والاهتمام بفلسطين وقضيتها في النثر فقط بل في الشعر أيضا، فلا تكاد تجد قصيدة أو شاعرا في هذه الحقبة التاريخية من سنوات الثلاثينات لم

يكتب عن فلسطين. فمنذ وعد بلفور المنكود في 2 نوفمبر 1917 م، وقضية فلسطين على الأفواه وفي أعمدة الصحف الجزائرية، وضمن القوائد الشعرية. فقد "خلد الشعراء شهداء ثورة 1936 وأبطال معركة القسطل كما أمأجوا العواطف أثناء حرب 1948، وهاجموا التقسيم ونادوا بالثأر وتوعدوا اليهود..²⁰".

وحين طبق حكم الإعدام في بعض الشهداء العرب في فلسطين سنة 1930م مثلا كتب الشيخ عبد الحميد بن باديس يرثيهم، ويبين فضل الشهيد عند الله ولزوم الشهادة لبناء الحصارات والتمكين لدين الله وتحرير الأوطان وسجل شجاعتهم وإيمانهم ورباطة جأشهم أمام الموت المحقق والإعدام المؤكد. فقال أحدهم؛ الشهيد محمد مجموع: "تحمد الله على أننا نحن لا أهمية لنا نذهب فداء الأمة، لا أولئك الرجال الذين يستفيد الوطن من جهودهم وخدماتهم، وإذا كان إعدامنا نحن الثلاثة يززع شيئا من كابوس الإنجليز عن الأمة، فليحل الإعدام في عشرات الألوف منا لكي يزول هذا الكابوس عنا تماما"²¹.

إنها ثقة المؤمنين وشجاعة الأحرار وإخلاص الوطنيين الذين لا يخلو منهم دهر ولا تحرمهم الشعوب المخالصة في طلب حقها في الحياة.

ثم علق ابن باديس على أولئك الشهداء بعد الدفن قائلا: "لم تدفن في تلك القبور الثلاثة جنث الأبطال الخالدين، كلا لقد دفن أولئك في القلوب العربية الدامية إنما الذي دفن في تلك القبور أديا هو سياسة حسن الظن في الإنجليز، واعتماد الضعيف على القوى لإحراز حقه، سياسة التكف والاستجداء والابتدال، فلن يكون بينهما في مستقبل الأيام إلا الموت الزؤام" "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"²².

و الحقيقة إن تعليق عبد الحميد بن باديس هذا، ورائه ما ورائه من المعاني والتعريض بالاستعمار الجاثم على الصدور هنا وهناك ينغزه ابن باديس في أسلوب أدبي راقى لا يدركه إلا من خبر كتابات الشيخ وتمرن على أسلوبه.

لقد ازدادت القضية الفلسطينية حضورا في الأدب الجزائري وفي الواقع اليومي المعيش وخاصة بعد أن أوصت اللجنة المكلفة بدراسة الوضع في فلسطين وتقصي الحقائق فـ "بعد تمهيد طويل في اثنين وعشرين فصلا، أوصت لجنة" بيل" في تقريرها تقسيم فلسطين، وإقامة دولة يهودية فيها، وضم الجزء العربي إلى إمارة شرق الأردن ولقد رفض الشعب الفلسطيني هذا المشروع ورد عليه بتصعيد الثورة المسلحة"²³.

في هذه الأجواء المشحونة، والتوتر الذي طال العالم العربي كله نجد سيلا من المقالات في الصحف والمجلات الجزائرية تتدد بالإنجليز وانحيازهم لليهود وتشجب

أطماع الصهيونية في فلسطين خاصة حين ظهر مشروع "قرار التقسيم" عام 1937 "قرأينا ذلك السيل الجارف من البرقيات والمقالات والبيانات تنشر تباعا في الصحف والمجلات والجرائد الجزائرية تساند أبناء فلسطين وتندد بأعدائهم من مستعمرين وصهاينة".²⁴

و ممن كتبوا في هذه الأجواء المتوترة الشيخ الطيب العقبى مقاله: "كارثة فلسطين" الذي بين فيه وأفاض مدى أحقية وشرعية الحقوق الفلسطينية في أرضهم ومقدساتهم وذهب إلى أن القضية لا تخصهم وحدهم بل تخص جميع العرب والمسلمين مهما بعدت بهم الشقة، وناعت الديار قال: "لهذا فإن كارثة فلسطين لم تكن بالأمر الذي يخص أهلها فحسب أو إن تجاوزهم لا يتجاوز إلا إلى من يليهم من أهالي البلاد العربية ويقف هناك ولكنها كانت مأساة عامة و كارثة عظيمة حلت بالعالم الإسلامي كله والعرب أجمعين. ..".²⁵

وبعد أن يهاجم الإنجليز يكشف للقراء الدور الذي لعبوه ومهدوا به لتمكين اليهود من إقامة دولة فكشف المؤامرة وفضح المخبوء في ثقة وعمق واقتدار. فقال عن الإنجليز وأحلافهم في عصابة الأمم وكيف قدموا فلسطين "لقمة سائغة للأكلين وغنيمة باردة لشذاذ العالم ونفاية الأمم من الصهيونيين، كان هذا من إنكلترا الظالمة وتحت نظر وبموافقة جمعية قالوا عنها إنها جمعية الأمم وعصابة الشعوب المتمدنة في هذا القرن الذي سموه أيضا عصر المدنية والنور".²⁶

كما نشطت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين اتجاه القضية الفلسطينية فكتبوا الاحتجاجات والبيانات ورفعوا الشكاوى وجمعوا الأموال وكونوا لذلك اللجان في المدن والقرى والأحياء والنوادي²⁷ وبعثوا ببرقيات عديدة منها برقية (احتجاجات الجمعية قضية فلسطين) إلى وزير خارجية فرنسا: "بسم الأمة الإسلامية الجزائرية أرغب منكم أن تبلغوا جمعية الأمم احتجاجي الصارم ضد سياسة الحيف المستعملة ضد أخواننا الفلسطينيين وبالأخص ضد مشروع تقسيم وطنهم الإسلامي العربي منذ قرون عديدة وبودي لو تشهر فرنسا بصفحتها" دولة إسلامية عظيمة*** الفرصة السانحة لها بالتدخل لفائدة الشعب الفلسطيني المضطهد لتحفظ ناموسها وتقوي نفوذها الأدبي في العالم الإسلامي المتعطش للعدل والإنصاف والذي يحسن الاعتراف بالجميل".²⁸

واللافت للنظر في هذه المرحلة التقدمية من حياة القضية الفلسطينية وصداها في الأدب الجزائري هو أن الدارس للأدب الجزائري يلاحظ ظاهرة متميزة في كتابات الجزائريين شعرا ونثرا، « وهي الانطلاق من الواقع الوطني إلى الواقع العربي من رؤية

محبية إلى رؤية عربية شاملة. ...²⁹ . وهذا دليل قاطع على سعة النظر عند الأديب الجزائري وعمق تفكيره وصدق انتمائه وارتباطه بوطنه العربي الكبير. ومن ثم كانت كل دعوة إلى القضايا الوطنية لا تخلو من الدعوة إلى القضايا العربية والقومية وعليه كما يقول الدكتور محفوظ قداش " الدعوة إلى الوحدة العربية والدعوة الوطنية ممتزجتان"³⁰ كل ذلك لأن الإنسان الجزائري عموماً والأديب خصوصاً كان ينظر إلى القضايا والأحداث سواء كانت وطنية أم قومية نظرة موحدة أساسها الدين. فالأدباء الجزائريون شعراء وكتاباً اهتموا إلى جانب هذا بالحديث عن الوطن وعن العروبة والشرق، كل هذا في إطار الدين الإسلامي، فكثيراً ما تختلط هذه الأمور كلها لدى الشاعر، إذ يتغنى بالوطن ويقرن هذا بالتغني بالعروبة والإسلام ما زجا بين هذه الموضوعات الثلاثة، لأنه لا يفرق بينها، ولا ينظر إليها باعتبارها قضايا منفصلة، بل ينظر إليها نظرة واحدة، فالوطن والقومية والدين كلها بالنسبة له تعني أمراً واحداً.³¹

وربما هذا ما يؤكد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي كتب عن فلسطين وقضيتها المقالات والقصائد والبحوث حتى وهو ينافح عن القضايا الوطنية سنوات الخمسينات بعد أن اشتدت محنة الفلسطينيين وتأزم الوضع الجزائري بسبب تصعيد الاستعمار هجمته على الجزائر أرضاً وشعباً، قيماً ومثلاً. فكتب الإبراهيمي بعد نكبة فلسطين في 1948 مقالات عديدة عن تاريخ فلسطين وعروبتهما وأحقية العرب في ملكيتها ودحض أباطيل اليهود والاستعمار الإنجليزي والصهيوني، وكشف خطط الاستعمار في كل مكان ومن ذلك في الجزائر وفي فلسطين، وحث العرب وحفزهم إلى نصرة فلسطين وعدم الاستهانة باليهود وبين مخاطر الصهيونية وأهدافها البعيدة وتواطؤها مع الاستعمار قديماً وحديثاً فقال في إحدى مقالاته عن الصهيونية ومخاطرها: "إن الصهيونية فيما بلونا من ظاهر أمرها وباطنه نظام يقوم على الحاخام والصيرفي والتاجر ويتسلح بالتوراة والبنك والمصنع، وغايتها جمع طائفة قدر لها أن تعيش أوزاعاً بلا وازع، وقدر لها أن تعيش بلا وطن ولكن جميع الأوطان لها فجاءت الصهيونية تحاول جمعها في وطن تسميه قولاً فلسطين ثم تفسره فعلاً بجزيرة العرب كلها فهو حقيقة استعمار من طراز جديد في أسلوبه ودواعيه وحججه وغاياته...".³² وبقي الإبراهيمي يدافع عن فلسطين في كتاباته سنوات طويلة، الأمر الذي يستدعي تخصصه ببحث مستقل في هذه القضية.

وقد كتب بيرر استماتة في الدفاع عن فلسطين وقضية شعبها المنكوب فقال: « وإذا حشر نفسه في العصبية الذائدة عن فلسطين وأشركها في العصبية الغالية لفلسطين، فليس بمدفوع عن ذلك، لأنه عربي أولاً ومسلم ثانياً وفلسطيني بحكم العروبة والإسلام

ثالثاً، فله بعرويته شرك في فلسطين من يوم طلعت هوادي خيول أجداده في البلقاء والمشارف وتصاهلت جيادهم باليرموك تحمل الموت الزؤام، للأروام، وله بإسلامه عهد بفلسطين من يوم اختارها البارى للعروج إلى السماء ذات البروج وله إلى فلسطين نسبة من يوم قال الناس مسجد عمر بل من يوم عزة هاشم، فإذا لم يقم بالحق ولم يف بالعهد، وسم بالعقوق لوطنه الأكبر ووصم بالخيانة لدينه الجامع وزن بالبنة في تلك الأبوة.
.. " 33

يشهد بذلك القلم واللسان، والأسماء، والأفعال، وتشهد بذلك التواريخ المكتوبة، والأخبار غير المكذوبة، فإذا تظلم وتآلم لفلسطين، وامتعض وارتمض للعدوان عليها، وإذا نهض يواسي ويعين، ويسعف ويسعد فهو حقيق بذلك لبعض وحق فلسطين عليه³⁴ ولم يكن الإبراهيمي يرى المعركة مقتصرة على الجيوش في الميدان، بل كان يرى أن المعركة جنودها الجيوش والشعوب والحكام والأفراد ومن هؤلاء تخصيصاً الأدياء العرب لما لهم من الدور الفعال في ساحة المعركة فقال: "وواجب كتاب العرب وشعرائهم وخطبائهم أن يلمسوا مواقع الإحساس ومكامن الشعور من العرب، وأن يؤججوا نار النخوة والحمية والحفاظ فيها، وأن يغمزوا عروق الشرق والكرامة والإباء منها، وأن يثيروا الهمم الراكدة، والمشاعر الراقدة منها، وأن ينفخوا فيها روحاً جديدة فيها كل ما في السيل الكهربائي من نار ونور" .³⁵

و للإنصاف والتاريخ فإن محمد البشير الإبراهيمي ومن ورائه الأدياء الجزائريون قد نافحوا عن فلسطين" بحيث يندر أن نجد قصيدة تتحدث عن قضية وطنية وتركز عليها وحدها دون الربط بينها وبين القضايا العربية الأخرى³⁶ وخاصة منها فلسطين.

و يحذر الإبراهيمي من كيد اليهود والاستعمار الجديد المتمثل في الصهيونية العالمية التي تغلغت في كثير من الدول وعششت في مصادر القرار فيها. وينعى على العرب مواقفهم المتخاذلة أمام الهجمة الشرسة والعزيمة الشديدة لليهود والاستعمار من ورائهم على استعمار بلاد فلسطين ومن بعدها كل بلاد العرب، وكأني به ينظر من كوة الغيب إلى ما نحن فيه فقال: " أمعنوا في الاستعداد، وأمعنتم في الرقاد، واعتمدوا على العلم (والريال) واعتمدتم على الجهل والخيال، جاءوكم بصف واحد كلمومة الصخر، وجئتموهم بصفوف متخاذلة، جاؤوكم على قلب رجل واحد وجئتموهم بقلوب متنافرة، قادم إلى الظفر قائد واحد ورأى جميع، وقادكم إلى العار قواد متشاكسون ورأى شتيت، ما أضع السيادة إلا توزيع القيادة، اجتمعوا وافترقتم، فسلموا واحترقتم.

تالله ما ضاعت فلسطين اليوم، ولكنها ضاعت يوم وعدوا بها فركنوا إلى العمل، وركنتم إلى الكلام، بل ضاعت قبل ذلك بقرون، منذ نبت قرن صهيون***، فتماريتم بالنذر، ولم تأخذوا الحذر"³⁷.

وبالرغم من كل ما لحق فلسطين من عنت واستعمار وتشريد لأهلها، فإن الإبراهيمي كان يعتقد جازما أن ذلك مجرد محنة عابرة إذ كتب ينعي على البعض تحت عنوان (ذوق بارد) فقال: "تعاني فلسطين "المجاهدة" محنة لاتحل إلا بعزائم وقائد وإيمان تظاهرها أموال ورجال على كثرة مصائبها وتفاوت تلك المصائب في الشدة والنكاية والإيلام، فإن أشد تلك المصائب وأجمعها إيلاما تحذلق بعض الأقلام في تسميتها "الشهيدة" كأنما تعامها قبل الموت ونعيق بعض الغربان البشرية بأخبار الهزائم وتسويد بعض الصحف لأطرافها حدادا عليها.

ما هذه التفاهة في الذوق أيها الصحفيون أماتت فلسطين حتى تصفوها« الشهيدة" وتجللوا صحفكم بالسواد حدادا عليها ؟

إن لم يكن فعال فليكن حسن فال... إن فلسطين حية ولكنها تجاهد ومأزومة ولكنها تكابد ولفألكم الخيبة.. أتدرون أن ذوقكم هذا لا يحلو إلا لخصوم فلسطين.³⁸ إنه الحس الأدبي الرفيع وفقه اللغة العميق قل من يحسه حتى ولو امتهن الكتابة وادعى أنه صحفي، إنه ذوق وذوق وشتان بين هذا وذاك.

لقد استولت قضية فلسطين على فكر الإبراهيمي وشعوره وقد خصها بالكتابة نثرا وبالنظم شعرا، فقال في مناسبة عيد الفطر قارنا بين حزنه على الجزائر وحزنه على فلسطين فقال:

لناس عيد ولى همان في العيد	فلا يغررك تصويبي وتصعيدي
هم التي لبثت في القيد راسفة	رنا وعشرين في عسف وتعبيد
وهم أخت لها بالأمس قد فنيت	حماتها بين تقتيل وتشريد ³⁹

ويغتم الإبراهيمي الفرصة لإعادة التذكير بمخاطرة الدولة اليهودية وتوسعاتها وأحلامها الصهيونية التوراتية المبنية على الأساطير والخرافات والأوهام فقال: « وكان من النتائج المحزنة أن وضع صهيون رجله في ماء العقبة أتدرون موقع الحزن من ذلك ؟ إنه قطع لأوداجكم إذ لم يبق لكم بعد العقبة شبر من اليابسة تتواصلون عليه أو تمدون فوقه سكة حديدية تصل أجزاءكم أو طريقا للسيارات أو سلكا للمخاطبات وأنه بعد ذلك إيذان بغزوه لمكة والمدينة وتهديد صارخ لوالي الحجاز..⁴⁰

إنها رؤية الأديب الذي يرى ما لا نرى ويحس بما لانحس به إنه التميز والتفرد والخصوصية التي يتميز بها الأديباء ذلك لأن "الأديب المبدع والشاعر كلاهما حاسة استشعار في المجتمع تنبئ وتنبه"⁴¹، كما نجد الرؤية نفسها يرددها الشاعر عز الدين ميهوبي الذي كتب يقول:

يا لهف نفسي.. قدسنا غرقت
هل من سفين ينقذ الحجر
أخشى وما أخشى أيا وطني
أن تلحق القدس أم القرى
كم زاد عن عرض الحمى عمر
و اليوم لا نلقى لنا عمرا⁴²

و الخلاصة التي نمكن أن نخرج بها من هذه المقالة هو أن الكتاب الجزائريين – كما فعل الشعراء – قد اهتموا بالقضية الفلسطينية منذ بداية القرن العشرين ومنذ أن بدأ الحديث عنها همسا إلى أن طفت إلى الوجود وبرزت على السطح مع وعد بلفور في 1917/11/02 فبينوا مخاطر اليهود وكشفوا أهداف الصهيونية ومعها الاستعمار بكل أشكاله فرنسا وإنجلترا، ونظروا إلى القضية بالعمق نفسه والاهتمام ذاته الذي عالجوا به القضايا الوطنية الصرفة ولم يألوا جهدا في الدفاع والإستماتة عن فلسطين وقضيتها بالقدر الذي بذلوه لقضايا الجزائر ويمكن أن نختم الحديث بقول الدكتور عبد الله الركبي الذي يقول: "لا نغالي حين نقول إن الإنتاج الأدبي الجزائري شعرا ونثرا في هذا القرن دار حول محاور ثلاث، الوطنية والعروبة، والوحدة العربية، فلسطين"⁴³.

الهوامش:

- 1- انظر د/ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، ص151 وما بعدها.
- 2 - انظر، سعد الله فوزي، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، فهو كتاب مفيد في هذا الموضوع وكذلك انظر، عيسى شنوف يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود لما فيه من المعلومات القيمة.
- 3 - انظر، عمر راسم، استعمار فلسطين: داروا الأمريا مسلمين، مرشد الأمة، ع4، 1909/7/23.
- 4 - عمر راسم، كشف أعمال اليهود التخريبية صناعة جديدة للسلب والنهب، مرشد الأمة ع6- 1909/8/6.
- 5 - م.س.
- 6 - عمر راسم، الجزاء من جنس العمل، مرشد الأمة، ع14، 1909/12/5
- 7 - عمر راسم، استعمار فلسطين، مرشد الأمة، ع8، 1909/08/27. توقيع وقع به عمر راسم مقاله.
- 8 - محمد ناصر. عمر راسم، المصلح النائر، مطبعة لافوميك الجزائر (د ت) ص36.
- * - عدو اليهود على الإطلاق: إمضاء كان يمضي به الكاتب محمد راسم.

- 9 - م.س، ص نفسها.
- 10 - م.س، ص نفسها.
- 11 - م.س، ص 69.
- 12 - انظر، صالح خرفي، الجزائر والأصالة الثورية، ص33، وما بعدها.
- 13 - م س، ص 48.
- 14 - جريدة ميزاب، ع14 جانفي 1930.
- 15 - عودة بطرس عودة. القضية الفلسطينية في الواقع العربي، ص 355.
- 16 - م.س، ص نفسها
- 17 - م.س، ص 361.
- 18 - م.س، ص نفسها.
- 19 - أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص115.
- 20 - م.س، ص116.
- 21 - آثار عبد الحميد بن باديس، ج 5، ص480.
- 22 - م.س، ص481.
- 23 - بطرس عودة، القضية الفلسطينية في الواقع العربي، ص363
- 24 - عبد الله الركيبي، الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، ص201.
- و انظر، كذلك، أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية، ص486.
- 25- الطيب العقبي، (كارثة فلسطين) البصائر، ع78، 13 أوت 1937.
- 26- م س.
- 27- انظر، أحمد مريوش، القضية الفلسطينية في اهتمامات الشيخ الطيب العقبي، مجلة الدراسات التاريخية، ع 9، السنة 1415هـ/1996م، ص243.
- ** - هكذا كانت تشيع فرنسا بين شعوب مستعمراتها الإسلامية ومنها الجزائر (فرنسا دولة إسلامية عظيمة.
- 28- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 6، ص.209
- 29- عبد الله الركيبي، الأوراس في الشعر العربي، ص 179.
- 30- صاري الجيلالي، الجزائر في التاريخ ص 24.
- 31- عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص.680
- 32- محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 493.
- 33- م.س، ص513.
- 34- م.س، ص 514.
- 35- م.س، ص 517.
- 36- الركيبي، الأوراس في الشعر العربي، ص201.

***- يحسن قراءة، كتاب عودة بطرس، القضية الفلسطينية في الواقع العربي، ص 110، وما بعدها.

- 37- الإبراهيمي، عيون البصائر، ج 2، ص 610.
- 38- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي ج 3، ص 63.
- 39- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 161.
- 40- م س، ص 165.
- 41- عبد العلي الجسماني، سيكلوجية الإبداع، دار العربية للعلوم، بيروت، ط 1416هـ/1995. وانظر، محمد النويهي، محاضرات في عنصر الصدق في الأدب جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، 1959، ص 9، ص 55.
- 42- عز الدين ميهوبي، في البدء كان الأوراس، ص 199.
- 43- الركيبي، الأوراس في الشعر العربي، ص 179. وانظر كذلك، عبد مرتاض، التجربة الشعرية الحديثة في الجزائر 1962-1990 - مجلة الآداب العدد 5 السنة 1421هـ - 2000م، ص 226، وما بعدها.